اللغة العربية لغة علم وثقافة وحياة

دكتور حافظ شمس الدين عبد الوهاب

أستاذ الجيولوجيا بكلية العلوم – جامعة عين شمس

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

تعد مصر من أهم الدول التى احتضنت اللغة العربية، وأصبح لها شأن كبير على مدى تاريخها الطويل ... وبات الأزهر ومعه المدارس المصرية منارات علم وفكر وثقافة ، ينهل منها الدارسون على امتداد العالم العربى والعالم الإسلامى أيضا، وربما كان التعليم المصرى بلغته العربية المتميزة ، هو الذى أفرز علماء يعتزون بلغتهم العربية الرصينة، ينتشرون عبر القارات الخمس يؤدون رسالتهم السامية فى نشر العلم وإعلاء مناره.

وقد عرفت مصر اللغة العربية فى القرن السابع الميلادى عام (٦٤٠م)، وعندما دخل العرب مصر، كانت اللغتان القبطية واليونانية سائدتين فى البلاد، لذلك استقدم الفاتحون معهم مترجمين للتفاهم مع أهل البلاد فى ذلك الوقت. واستمر هذا الحال قرابة قرن من الزمان إلى أن صدر قرار بإحلال اللغة العربية فى الهيئات الحكومية، ورويدا رويدا بدأت اللغة العربية تجرى على ألسنة أهل مصر وتتغلغل فى وجدانهم. ووفد على مصر بعض العلماء العرب الذين ساهموا فى تعليم المصريين استقامة لسان اللغة العربية لديهم، وكتبوا وألفوا بالعربية مثل ابن يونس فى القرن العاشر الميلادى والبغدادى فى القرن الثانى عشر الميلادى.

وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، بدأ الحكم العثمانى لمصر وتعصبت العناصر التركية والموالين لهم، فظهرت اللغة التركية على الساحة المصرية، وتخلف

تعليم اللغة العربية وشاعت العامية حتى فى المكاتبات الرسمية. ثم جاء الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وقصر اهتمامه على المرحلة الابتدائية من التعليم، فتراجعت اللغة العربية إلى كعبتها فى الأزهر الشريف ودار العلوم، وأخذ المحتلون يحاربون اللغة العربية والمؤمنين بتعلمها، وفرضوا التعلم باللغة الإنجليزية فى مواد التعليم، ذلك بهدف جذب المتعلمين بها إلى حظيرة أصحاب الثقافة الإنجليزية، ورأوا إن إحلال العامية المصرية محل اللغة العربية قد يحقق هدفهم فى طمس اللغة العربية الشريفة من وجدان الشعب المصرى وتغييبها فى وطنها، فنادوا بذلك صراحة. وقد أثر هذا القهر الفكرى والتعليمى فى شعور المصريين. حتى قامت ثورة ١٩١٩ بقيادة الزعيم الوطنى سعد زغلول الذى زرع الوطنية والانتماء لمصر فى صدر الشعب، وحين صدر دستور ١٩٢٣ أعاد سعد زغلول اللغة العربية إلى مكانها اللائق بها وبالشعب المصرى لتصبح لغة التعليم فى جميع المدارس الحكومية، وبعد ذلك تم إخضاع مدارس التعليم الأجنبى فى مصر إلى الإشراف المصرى وتبعتها صحوة تدعو إلى محاربة استخدام العامية المصرية بجانب اللغة الإنجليزية.

الاستقراء الجيد المتأنى للتاريخ القديم، يوضح لنا أن أمما كانت سائدة فى قرون سابقة، وكان لها السبق والريادة فى التقدم – فى وقتها – بل إنها كانت تتحكم فى العالم القديم فى كل مناحيه، وشواهد ذلك مدونة على جدران المعابد وفى المخطوطات وكتب التراث ، أو فى الأطلال التى خلفتها تلك الحضارات البائدة. وإذا أنعمنا النظر فى هذا الأمر بعين خبير مدقق وعقل حكيم مدبر ، وبواقعية دون جنوح للتحيز أو التعصب، نجد أن بداية اندحار الأمم واندراسها، كانت تبدأ دائماً بانحدار مستوى قيمة لغتها بين أهلها والمتحدثين بها، فاللغة هى مفتاح الهوية والعمود الفقرى لكينونة الأمة. وإحياء اللغة لأمة ما، هو إكسير استمراريتها. ولنا فى ذلك نظرة واقعية إلى لغة كانت ميتة لقرون كثيرة ، وكان ينظر إليها وكأنها فى عداد الذكريات الخوالى، لكن قومها أعادوا الهواء مرة أخرى إلى رئتيها، فعادت وفرضت نفسها على أرض الواقع، بعد أن زرعت فى نفوس من يتكلمونها كينونة الهوية والانتماء لها.

وعلى الوجه الآخر، إذا نظرنا إلى حال لغتنا العربية – اللغة الشريفة – وهى من أقدم لغات شعوب الأرض استمرارية، مهما تقلبت الحضارات وتبدلت الثقافات، فإننا سنجد – والحسرة تعتصرنا – أن لغتنا العربية شهدت فى السنوات الأخيرة تراجعًا، وأوجدت قلقاً بالغاً لدى المشتغلين بالتعليم والثقافة فى كافة المراحل. وبلغ مستوى الضعف والاستهانة باللغة العربية ومكانتها درجة سيئة، أشاعت الألم والأسى فى نفوس كل من يعتز بلغته العربية ، ولا يكاد يمر يوم دون أن تتصدى أقلام الغيورين على لغتهم خوفا من ضياعها وفقدان هوية أهلها. خشية أن يأتى يوم تكون اللغة العربية ومن يتحدثون بها من الفئات المهمشة، الذين لا مكان لهم على خريطة مسايرة العصر ومستجداته.

وينبع اهتمامنا باللغة العربية من عقيدة دينية، ثم من عقيدة وطنية وقيم حضارية وموروثات اجتماعية. فاللغة هى وعاء الفكر بل هى الفكر بعينه، وهى وسيلة الاتصال والتواصل والتفاهم. والأهم من ذلك، فهى رابطة قومية ترسخ جذور الانتماء للوطن، كذلك فإن اللغة هى المخزون الذى لا ينضب من خبرات أهلها وتجاربهم وفنونهم ومعارفهم .. وفى هذا المقام يحضرنى قول ابن جنى "إن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" هذا القول صحيح، لكنه بحاجة إلى توسيع، فليست اللغة أداة للتعبير فقط ولا هى وسيلة الفكر ووعاؤه فحسب، بل لعلها كما يقول البعض إن اللغة هى الفكرُ بذاته. هذا هو المفروض أن يكون، لكن أرض الواقع الحالى تظهر غير ذلك، لأن حال اللغة العربية وحال دارسيها ومدرسيها يلقى بظلال تثير القلق فى نفوسنا، وكأن اللغة فى خصام مع ناطقيها، أو كأن بعضهم يتحين الفرصة المناسبة للتخلى عنها، أو كأنها مرض يريد أن يتخلص منه بعد معايشة ومعاناة. لقد أصبحت هناك جفوة بين اللغة العربية والناطقين بها، وأصبحت الجفوة فجوة، حيث حلت اللغة الدارجة أو خليط بين الفصحى والعامية، أو تلك الكلمات الغريبة و السخيفة التى لا محل لها من الذوق والأصالة أو حتى المعاصرة ، ذلك لأن الذى يتخلى عن لغته ، يتخلى عن ماضيه وعراقته وعن حاضره، ومن لا حاضر له لا مستقبل له. ويعز على أن أقول إن

اللغة العربية تكاد تترنح الآن على ألسنة بعض الناطقين بها، وأخشى أن يكون ذلك بداية لإدخالها غرفة الإنعاش أو الحالات الحرجة ، فهى تعانى اليوم من أزمة حادة تتمثل فى عزلة اللغة لعربية بمفرداتها وكلماتها وأصالتها عما يجرى اليوم على الألسنة فى كل مكان، فالكثير مما نأكل وما نلبس وما نتداوى به وما نستخدمه من أدوات الصناعة والزراعة ومختلف الفنون، وما يقع عليه بصرنا وما تسمعه آذاننا وما تلمسه أيدينا مستورد أو مصنوع بلفظه الأجنبى، ويطلبه الناس بلفظه الدخيل على اللغة، وأصبح كل ذلك جزءا من حياتنا اليومية. وتلك هى الخطورة الكامنة التى تحدق باللغة العربية، والتى تدعو اليوم إلى وقفة صارمة، قبل أن تصبح اللغة العربية غريبة فى أوطاننا.

أما ثالثة الأثافى التى تشكل منعطفاً خطيرًا فى مسيرة اللغة العربية، فهى المدارس التجريبية أو المدارس الأجنبية الموجودة فى مصر والتى يبدأ الطفل فيها تلقى دروسه بلغة أجنبية على حساب لغته الأم. وهذا هو عقوق الأم بعينه، حيث سيشب هذا الطفل عازفا عن لغته العربية، ويحاول أن يتجاهلها ويصبح بعد ذلك فى المراحل التالية لتعليمه مسخا، لا هو أتقن اللغة الأجنبية التى بدأ بها تعليمه، ولا أتقن لغته العربية التى أهملها، ونتائج ذلك معروفة لمن يتابع مستوى خريجى المدارس التجريبية فى لغتهم العربية حين يلتحقون بالتعليم الجامعى. وكونى أستاذًا فى الجامعة أمضى أكثر من نصف قرن فى سلك التدريس فيها، ففى كل عام أنظر إلى إجابات الطلبة عن الامتحانات وأتحسر على مستوى إجاباتهم باللغة العربية أو حتى باللغة الأجنبية.

وهناك شئ جدير بأن أذكره، وهو أن التعليم الجامعى فى مصر مقرر له أن يكون باللغة العربية (هذا قانون منذ إنشاء الجامعة المصرية)، وأجاز القانون إمكانية تدريس بعض المقررات بلغة أجنبية (بصورة مؤقتة)، والآن أصبح الاستثناء قاعدة، والقاعدة أصبحت استثناء ، حيث تدرس غالبية العلوم فى كليات الطب والصيدلة والعلوم

والهندسة والتمريض والحاسبات ونظم المعلومات باللغات الأجنبية. وبالطبع كل ذلك على حساب اللغة العربية.

أمر آخر جدير بالنظر والعناية، وهو افتتاح عدد كبير من الجامعات الأجنبية فى مصر مثل الجامعة البريطانية والجامعة الروسية والجامعة الفرنسية والجامعة الألمانية وغيرها. حيث بلغ عدد الجامعات الأجنبية والخاصة فى مصر حتى عام ٢٠٠٩ حوالى عشرين جامعة. والتدريس فيها جميعاً بلغات غير العربية. وبالطبع سيكون الطالب فى هذه الجامعات مهتماً بلغة يدرس بها. وسيفقد إحساسه بلغته الأم التى لا يدرس بها، وأعتقد أن ذلك بداية فقدانه للانتماء للغته أولا ثم وطنه بعد ذلك، لأن معظم من التقيت بهم من خريجى الجامعات الأجنبية فى مصر، هم ناقدون لنظم التعليم واللغة العربية بكافة أبعادها ويتحدثون بلغة عربية ركيكة ، وكأنهم غرباء عن وطنهم. إننى من أشد المتحمسين للتعليم فى المراحل المختلفة باللغة العربية ، وفى الوقت نفسه أنادى بالاهتمام بتعلم لغة أجنبية أوأكثر ، كى يستطيع الدارس أو الباحث الإطلاع بها على إنجازات العلم الخارجى، لأن تعلم اللغات الأجنبية هى النافذة التى نطل منها على بحوث دول المعرفة المتقدمة وإنجازاتهم واختراعاتهم واكتشافاتهم ، ونتواصل معها ونأخذ عنها، دون أن نغفل الاهتمام باللغة العربية لأنها لغة الوطن والعقيدة والانتماء، فهناك فرق بين التعلم بلغة أجنبية وتعلم لغة أجنبية.

وبالنسبة لمسألة تعريب العلوم ومصطلحاتها فإن التعريب اللغوى هو المنطلق الحقيقى لتعريب الفكر، ونحن نراه خطوة أساسية فى هذه السبيل، بالإضافة إلى أنه أصبح ضرورة قومية وعلمية، لصالح العرب والعربية ذاتها.فليس من المقبول شكلاً وموضوعا أن يظل العلم (أو بعض فروعه) فى البلاد العربية أسيرا للغات أجنبية تفكيرا وتناولا وتحصيلا حتى هذه اللحظة، ذلك أن إيثار اللغات الأجنبية على لغتنا القومية فيه تقليل لشأنها وإضعاف لمنزلتها بين الناس. وربما يؤدى ذلك فى النهاية إلى خلق جو علمى ثقافى مضطرب، لا هو إلى الأجنبى ينتمى، ولا هو إلى العروبة ينتسب، وإنما هو جو فاقد الهوية مشتّت السمات مشوّه القسمات، ليس له حدود ضابطة ولا أصول ثابتة.

وهذا هو الضياع القومى والانهيار الفكرى الذى ينذر بمحو روح الانتماء، التى تعد اللغة قطبها الذى يتجسد وتتمثل فيه كل القيم والمثل وأنماط السلوك الفارقة بين قوم وقوم والمميزّة لأمّة من أخرى.

كذلك فإن توظيف العربية فى العلوم ييسّر للطالب والباحث العربى العملية العلمية والتعليمية، ويساعدهما على سرعة الفهم والتحصيل والإنتاج. والقول بأن الطالب العادى تعوزه أدوات التعبير بالعربية الفصيحة الصحيحة ، قول يحمل بطلانه فى طياته . إذا كان هذا الطالب ضعيفا فى لغته القومية ، فهو فى اللغة الأجنبية أضعف، وإذا كان عاجزا عن توظيف اللغة العربية، فهو فى التعامل مع اللغات الأجنبية أعجز. ومنطق الأشياء يقرّر أن الإنسان مهما جادت حصيلته من اللغة الأجنبية، فلن يقوى على التعامل بها أو توظيفها بالقدر الذى يمنحه لسان أُمّه، الذى استقر فى عقله ووجدانه ولازمه منذ نعومة أظفاره، والثابت فى كتب تاريخ الطب فى مصر أن "كلوت بك" ناظر مدرسة الطب المصرية فى عهودها الأولى، كان حريصاً على ترجمة المواد الطبية من الفرنسية إلى العربية، وفاء بهذا المعنى نفسه. ويقول فى ذلك "إن التعليم بلغة أجنبية لا تحصل منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطيد العلم أو تعميم نفعه".

فالتعريب يمنح لغتنا القومية فرصة ذهبية بتمكينها من التفاعل الحى والكشف عن طاقتها، تلك الطاقات والقدرات التى لم يحاول بعض الدارسين تنشيطها واستغلالها وتركوها معطلة – قصدا أو عن غير قصد – حتى غدت فى نظرهم عاجزة عن الوفاء بحاجاتهم من وسائل التعبير وأدواته. ومن ثمّ توهموا عجزًا طبيعيًا فيها وعُقْمًا خِلْقيا فى مادتها، فانصرفوا عنها وألقوا بها خارج أسوار معاهدهم واستبدلوا بها لُسُنًا أجنبية .

إن مَنْحُ العربية رخصة التفاعل فى البيئات العلمية يزيد من ثروتها، وينّمى محصولها، كما يساعد الدارسين على التفكير بها، الأمر الذى يؤدى إلى إلفْها والتعامل

بها، وبذلك ينزاح عنها توهّم ضعفها واتهامها بالعجز عن ملاحقة العلوم وما يجد فيها من تطوّر.

والإصرار على توظيف اللغات الأجنبية فى العلوم قد يؤخذ دليلا على وجود نوع من النزعة إلى إظهار التفوق والامتياز، على أساس أن هذه اللغات إنما هى لأقوام محسوبين فى عداد الأمم التى يُنظر إليها على أنها جديرة بالتقليد فى مجالات الحياة بوجه عام ، وفى مجال العلوم فى أقل تقدير. وهذه النزعة – إن صحّ وجودها ويبدو أن الأمر كذلك – لها وجهان من الخطأ والخطر من الوجهة الثقافية والاجتماعية على المستويين العام والخاص. أما أول هذين الوجهين فيتمثل فى إحداث هزة فى السلوك الاجتماعى، إذ ربما تستهوى هذه النزعة بعضًا من الناس – مثقفين وغير مثقفين – وتجرهم إلى السير فى هذا الدرب الخادع، وينحازون – قصدا أو عن غير قصد – إلى كل ما هو مستورد أو منقول من ألوان العلم والثقافة، ويحاولون التزيّن أو التجمّل بهذه الألوان تكلفًا واصطناعًا، او ادعاء بأنهم طبقة متميزّة، أو أنهم قطعوا شوطًا فى الوصول إلى مدارج رفيعة من سلم الطبقات الاجتماعية. ومن ثمّ نرى هؤلاء الناس وأمثالهم يعلنون ويلحّون فى الإعلان عن أنفسهم باتخاذ أنماط من السلوك الاجتماعى، توحى بهذا الامتياز المتوهم.

ويأتى على القمة من وسائل هذا الإعلان توظيف اللغات الأجنبية فى حياتهم العامة والخاصة، والتشدّق بكلمات منها، مشوهّة مغلوطة نطقاً واستخدامًا، كلما ألحّت عليهم نزعة الاستعلاء وتحركت فى نفوسهم فكرة الامتياز. وربما يلخّص هذا المسلك كله قول القائلين: إن السّر فى انحياز بعضهم إلى توظيف اللغات الأجنبية فى العلوم وغيرها، هو محاولة الاحتفاظ بأرستقراطية المهنة وإظهار "الفوقية" فى السلّم الاجتماعى والثقافى. وأما ثانى هذين الوجهين فهو ذو نسب قريب من الوجه الأول ومترتب عليه نفسياً وعلميا.ذلك أن السلوك الاجتماعى – مهما كانت مصادره وأنماطه – لابد – إن عاجلا أو آجلا – أن يصبح تقليدا وعادة، فتستقر ملامحه وقسماته فى النفس وتنفذ

إلى الفكر والعقل، وتكون اتجاها نفسا ينشد "التغريب" وتتطلع إليه ، كى تهيئ لنفسها بيئة على شاكلتها، تضمن لها النموّ وتمنحها عوامل البقاء والاستمرارية. والنتيجة الحتمية لهذا كله فقدان روح الانتماء القومى، وإن بالتدريج، وتعويد النفس على التقليد والتبعية فى مجال العلم والثقافة ، وحرمانها من الأخذ بأسباب الابتكار والاعتماد على النفس وذلك – للأسف – ما نلمس بعض مظاهره وآثاره واضحة فى ميدان العلوم وبعض مناحى الفكر والثقافة فى العالم العربى بأجمعه.

إن الذى حدث – وما يزال يحدث – فى حالتنا نحن العرب أن بعض علمائنا فى العصر الحديث كفوّا عن الابتكار وجانبوا التفكير العلمى المبدع، وقنعوا فى بعض الحالات بالتقليد والنقل. ومن الطبيعى أن نقل الفكرة الأجنبية أو تقليدها يستتبع حتما او بالضرورة نقل الوسائل اللغوية المعبرة عنها، واستخدام مصطلحاتها الفنية. والمعروف أن العالم المبتكر و الباحث المنشئ لا يجد صعوبة فى العثور على أدوات تعبيره اللغوى ومصطلحاته. إن هذه الأدوات حاضرة فى ذهنه بصورة من الصور، لأن انشغال الفكر بالابتكار تصحبه عادة صورة لغوية مهزوزة أو غائمة فى أول الأمر، وهى بمثابة القوالب أو الأطُر التى تصلح لاحتواء الفكر أو الحقائق التى يشغل بها الباحثُ الأصيل نفسه، وما عليه بعد ذلك إلا أن يخلّص هذه الصور اللغوية من غموضها ويعمل على بَلْوَرَتِها، وذلك بصوغها فى النهاية فى أشكالٍ لغوية واضحة، معبرة خير تعبير عن فكره وحقائقه.

فلو أن علماءنا عمدوا إلى مثل هذا النهج فى التفكير العلمى لضمنا ثروة لغوية عربية تواكب ما ينتجون من علم وتفى بحاجات مبتكراتهم، لارتباط الجانبين (الفكرى واللغوى) ارتباطا وثيقا ، وجودا وعدمًا. أما التبعية فى التفكير العلمى فلا مناص لها من التبعية اللغوية.

وليس من المبالغة فى شئ أن نقرر مع ما قرره باحثون آخرون فى هذا الشأن من أن "الدعوة إلى استعمال اللغات غير العربية فى دراسة العلوم، لم تنبعث من عدم

إمكان تيسير استعمال العربية فى العلوم الجديدة، ولا هى ردّ فعل على موقف متين فى الدفاع عن الفصحى بمفهومهم الضيق لها، إنما هى منبعثة من دافع نفسى أعمق، وهو مدى ضعف إدراكهم لكيانهم العربى ، ومدى رغبتهم فى الحفاظ عليه وتنميته. إن موقفهم لا ينبعث من اعتقادهم بعجز اللغة العربية، بقدر ما هو من إعجاب يصل حدّ الاستسلام للحضارة الغربية".

وإذا لم يوّفق الدارس إلى ترجمة مصطلحاته الأجنبية إلى ما يقابلها فى العربية ربما يتحتم عليه أن يلجأ إلى التعريب. والتعريب أسلوب مشروع، وله أحكامه وضوابطه التى تعنى فى الأساس إخضاع المصطلح الأجنبى لشئ من التعديل أو التغيير فى بنيته، ليطابق النظم الصوتية والصرفية فى العربية. فالتعريب فى مجال المصطلحات تابع للترجمة وتالٍ لها، متى كانت الترجمة الدقيقة عصيّة المنال، أو كانت تنتظم تضحية بدقائق المعانى ومفاهيم المصطلح الأجنبى.

وخلاصة الرأى فى هذا الموضوع كله – موضوع تعريب العلوم ونقل المصطلحات الأجنبية – أن التعريب ينبغى أن يكون تعريباً فكرياً ولغويًا معًا، وهو بهذا المعنى مطلب قومى وعلمى واجتماعى. أما من الناحية القومية فالتعريب من شأنه أن يردّنا إلى ذوات أنفسنا فننظر فى طاقاتنا وكفاياتنا، ونعمل على استغلالها أو توظيفها فى بَلورة هويتها وتأكيدها، بحيث يصبح لها وزن ونوعُ وخصوصيةٍ ، تصونها من الضياع أو الذوبان أو التبعية ، وسط هذا الحشد الهائل من القوميات والأيدولوجيات المتصارعة على التفوق وانتزاع السيطرة على العالم. ولا يكون ذلك – بالطبع – إلا باكتمال العدد والأدوات التى تؤهلنا للوقوف على أرض صلبة، تحمى شخصيتنا وتقيها من هزة التأرجح والتذبذب، التى قد تؤدى فى النهاية إلى محو شخصيتنا أو تفرقها بين القبائل، وأولى هذه العدد والأدوات ومصدرها الحقيقى يتمثل فى الفكر الأصيل ومشاركته الفعالة بسلاح العلم الذى يضمن لنا موقعًا ذا خصوصية عربية.

ويجب ألا ننسى أنه كما أخذ العرب العلم عن الفرس والهنود واليونان وترجموا الكثير من الكتب السريانية واليونانية، فقد أعطوا الكثير أيضاً من علومهم فى الفلك والرياضيات والكيمياء والطب وعلوم الأرض والفيزياء ما يزال حيًّا – حتى اليوم – فى جذور العلم الحديث وأصوله.

ولقد قيل إن لغة لا تدخلها ألفاظ أجنبية لا تعد لغة حية متطورة آخذة طريقها نحو العالمية ومواكبة التقدم والحضارة. فالعربية نفسها إبان النهضة الإسلامية الكبرى فى العصور الوسطى رفدت اللغات الأوربية بألفاظ كثيرة وبخاصة فى عهد الترجمة من العربية إلى اللاتينية قبل عصر النهضة الأوربية. وإذا أنعمنا النظر إلى المعاجم الفرنسية مثلاً، يتضح لنا أنها تضم آلافاً من الكلمات الدخيلة، منها ٧٠٠ (سبعمئة كلمة على الأقل أصلها عربى). والمعاجم الإنجليزية أيضاً بها ألف كلمة على الأقل أصلها عربى منها ٣٦٠ (ثلاثمئة وستون) كلمة شاعت فى الحياة العامة للناطقين بالإنجليزية. وليست العربية أقل شأناً من هذا المضمار منذ القدم. ورحم الله الشهاب الخفاجى صاحب "شرح درة الغواص" الذى قال فى القرن الحادى عشر الهجرى: "لو اقتصر السابقون فى كلامهم على الألفاظ التى استعملها العرب العاربة والمستعربة فقط، لعسر التكلم بالعربية على من يأتى بعدهم".

وإننى أرى أنه من الظلم أن يُرمَى المجتهدون والمخلصون من نقلة العلوم الطبيعية والتكنولوجية إلى العربية بالإسراف فى ممارسة التعريب والاقتراض اللغوى، والحقيقة أن هؤلاء العلماء، وغالبيتهم العظمى من أعضاء المجامع اللغوية وخبرائها فى مصر والعالم العربى، من هذه التهمة براء. فهم لا يصنعون إلا ما سلكه أسلافهم من العرب الأوائل وما صنعه عرب عصور النهضة الإسلامية فى تعريب ما لا تُقدِّم اللغة فيه ما يستوفى شروط الاصطلاح المتعارف عليه دوليًا. وهم بالإضافة إلى ذلك ملتزمون فيما يصنعون بقرارات اتحاد المجامع العلمية ومجمع اللغة العربية القاهرى فى التعريب حيث كان أول قرار يتخذه المجمع فى أول دورة من دورات انعقاده فى عام ١٩٣٤ أنه يجيز أن تستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب فى تعريبهم.

ولقد فسر إبراهيم مدكور رئيس مجمع الخالدين الأسبق عبارة "عند الضرورة" التى وردت بالقرار بقوله: "للعالم كامل الحرية فى اختيار اللفظ الذى يرتضيه لأداء

الحقيقة العلمية، فيستمد من الفصحى أو العامية السليمة، ويستعين عليه باللغات الحية أو الميتة وقد يشكو فى قصور اللغة وعجزها عن أداء ما يريد فيلجأ إلى وسائل أخرى منها التعريب".وقد رسم مجمع اللغة العربية للتعريب قواعد تنظمه، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس (كالأكسجين والإنزيم والأيون) وما يدل على عَلَم من أسماء الأجناس والأنواع فى النبات والحيوان والمواد الكيميائية وما ينسب إلى علم أو شخص أو اسم مكان.

وفى بحث آخر أكد إبراهيم مدكور حق العلماء فى التصرف باللغة لوضع المصطلح العلمى بقوله: "وليس بلازم أن يكون التعريب على أبنية العرب، فالعلم هو تراث الإنسانية جمعاء ويجب أن يفسح المجال فيه لتبادل الألفاظ كما تتبادل الأفكار والمعانى. وقد عقب على هذا البحث عالم النحو الراحل عباس حسن بقوله: "إنى لأرى ألا نقف أمام المخترعات الحديثة ونكلف المجمع وضع ألفاظ عربية لها، فإنا حينئذ نكلف أعضاءه عسرًا، فأنا لا أرى داعيًا لهذا التزمت من ضرورة اختيار ألفاظ عربية، لأن بعض المخترعات قد يتجاوزها الزمن وتتغير قبل أن نصطلح على أسماء عربية لها.

ولسنا نحن وحدنا الذين نضطر للاقتراض اللغوى للضرورة، فإن هذا يصنعه أهل الغرب وغيرهم. وقد سبقت الإشارة إلى ما فى معاجمهم من نسبة لا بأس بها من ألفاظ أصلها عربى، ويكفينى فى هذا الصدد كلمة انتفاضة **intifadah** وكلمة حجاب **hejab** اللتان دخلتا لغة الصحافة والشعر الإنجليزى ، وما كان أيسر من ترجمة هاتين الكلمتين إلى الإنجليزية، ولكن هل تعبر اللفظة الإنجليزية المترجمة عن كل مقومات كلمة الانتفاضة وكلمة الحجاب؟

وإذا كان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد انتهج أسلوبًا علميًا مستقرًا فى اختيار المصطلح العلمى، فوضع قواعد محددة يلتزم بها كل ما يطرق ميدان التعريب ووضع المصطلحات العلمية، فيبدأ بعرض المصطلح ومناقشته فى اللجنة المتخصصة حيث يهذب وينقح، ثم يعرض فى جلسة المجمع لإعادة عرضه ومناقشته وتنقيحه، ثم بعد ذلك يعرض فى إحدى جلسات مؤتمر المجمع الذى يعقد مرة فى كل عام ويحضره أعضاء المجمع من كافة الأقطار، وبذلك تكتمل مقومات المصطلح. وهذا النهج الذى يسلكه المجمع فى إقرار مصطلحاته يرتكز على مبادئ مهمة، هى: ١- الحفاظ على

التراث العربى وإيثار ترجمة المصطلح مع إجازة التعريب؛ ٢- الوفاء بأغراض التعليم العالى والثانوى والتعليم بصفة عامة ، وكذا متطلبات التأليف والترجمة والثقافة العلمية؛ ٣- مسايرة النهج العلمى العالمى فى أسلوب اختيار المصطلح والتقريب بينه وبين العربية وبين نظيره فى اللغات العالمية الحية لتسهيل المقابلة بينهما للمشتغلين بالعلوم الأساسية وتطبيقاتها؛ ٤- تعريف كل مصطلح تعريفًا علميًا.

وأخيراً فليطمئن كل غيور على لغته العربية، فأهل العلوم الطبيعية والتكنولوجية لا يعرِّبون إلا فى حدود الضرورة، ولا خشية على اللغة أصولاً ونحوًا وبلاغة من معرباتهم، فهى بالتعريب قد دخلت اللغة ويجب أن تخضع لقواعدها إعرابًا واشتقاقًا وما إلى ذلك. هذا فضلاً عن أنها لن تدخل لغة الأدب إلا بمقدار يسير وستظل متنا خاصا تقريبًا للمشتغلين بالعلم وتطبيقاته التكنولوجية.

إن التعريب من الوجهة العلمية هو بمثابة المرآة الكاشفة عن شخصيتنا، وهو الدليل على أهليتنا لاكتساب موقع يحمى حقيقتنا ويمكنها من الانطلاق نحو عالم أوسع وأرحب من الفاعلية والمشاركة الإيجابية ، والتعريب ييسر سبل التحصيل والاستيعاب والهضم للدارسين، وينشط محصولهم اللغوى، الذى – بدوره – يعمل على تنشيط الفكر وتعميقه ، بحيث يخرج لنا زادا عربيا أصيلاً، نشارك به فى المسيرة العلمية فى العالم، فليس من اللائق علمياً أن ندور فى فلك الآخرين ، بالاعتماد على لغاتهم والتفكير بها، وهو فى رأينا تفكير لا جذور له ولا عمق فيه، لأنه موظف فى الأساس فى التقليد أو مجرد النقل عنهم.

والانصراف عن تجربة التعريب الفكرى واللغوى، بالاعتماد على المحصول المعرفى المصدّر إلينا أو المستورد من الخارج، لابد أن يجرنا – عاجلا أو آجلا – إلى تبعية ثقافية واجتماعية، وهى تبعية أشد خطورة وأعمق تأثيرا، لاتساع دائرتها وتعدد مناحيها، إذ سوف تجر إلى ساحتها جميع الطبقات والفئات، وتهدد بيئتهم الاجتماعية وتشوّه هويتهم الثقافية.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن مسألة ازدواج اللغة تمثل مشكلة فى تعليم اللغة العربية، فهناك لغة التخاطب و العامية التى يتعامل بها الناس فى حياتهم اليومية العامة والخاصة. وهناك لغة الكتابة فى معاهد التعليم والصحف والمجلات وغيرها. ولا شك أن لغة التخاطب لها تأثير قوى ، بما تتمتع به من نفاذ وأداء وسعة انتشار وتلقائية ومزاحمة للغة الفصحى فى وسائل الإعلام، وهذه تغزو الصغير والكبير وتحاصر المتكلم فى كل بيت، بل فى كل فصل من فصول الدراسة وغيرها من كل مجالات الحياة. وغنى عن البيان أن اللغة كالكائن الحى تتأثر بالبيئة والمناخ الذى تحيا فيه، وهى تنمو وتتطور فى مضمون صورها، فتخشن فى ظل البداوة، وترق وتلين فى ظل الترف والمدنية، وتتأثر برقى الثقافة وتقدم العلوم والمعارف.

إن الكثير من التحديات الداخلية التى تأتى لنا من الخارج، من هيئات ودول يعرفها الجميع، كلها تصب فى رافد واحد يهدف إلى اقتلاع اللغة العربية من جذورها التى ترسخت فى وجدان كل من ينطق بها، وبقية السيناريو معروف للجميع. وغنى عن القول إن اقتلاع اللغة هو اقتلاع للهوية وطمس للشخصية العربية وجعلها مسخًا، فلا هى أجادت لغتها، ولا هى أتقنت لغة أجنبية تبغى أن ترطن بها فى طلاقة.